الإمام الحسين عليه السلام في فكر العلاّمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين

- دراسة تحليلية نقدية لكتابه ثورة الحسين عليه السلام -

الأستاذ الدكتور
حسن عيسى الحكيم
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

كتب العلاّمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين كتابه (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية "وهو من الكتب العلمية ذات المنهج الواضح في دراسة الثورة الحسينية، فالقارئ حينما يقف على عنوان الكتاب، فإنه يشعر بوجود بعدين أساسيين للثورة هما: دراسة الأحداث التي سبقت الثورة، وما افرزت من ممهدات، ومن ثم دراسة الثورة ودوافعها وجذورها، وقد أشار المؤلف إلى هذين البعدين بقوله: "نهدف من بحثنا إلى اكتشاف الظروف الاجتماعية والإنسانية التي مهدت لثورة الحسين، لاعتقادنا بأن هذه الثورة كغيرها من الأحداث الاجتماعية الهامة، لم تكن وليدة اندفاعات وقتية وإنما كانت نتاجاً للظروف الاجتماعية التي سبقتها ". وقد حاول المؤلف دراسة الأبعاد العقائدية التي ساهمت في اعلان الثورة، فإنه قد طاف بين ثنايا مصادر التاريخ، ووقف بدقة على النصوص التي أشارت إلى الوضع السياسي بعد وفاة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام بدءاً من اجتماع السقيفة حتى مقتل عثمان بن عفان، فقد ناقش طرق توزيع العطاء، وآثاره على مستقبل الدولة الإسلامية بقوله: ((وقد ولّد هذا المبدأ فيما بعد اسوأ الآثار في الحياة الإسلامية، حيث أنه وضع أساس تكون الطبقات في المجتمع الإسلامي)). فأدى هذا المبدأ في توزيع العطاء إلى مقتل الخليفة الثاني، والخليفة الثالث، وساعد التفاوت في التوزيع على تأجج الصراع القبلي، ومن ثم زرع الفتنة بين صفوف المسلمين، وكادت قضية "الشورى" تؤدي إلى كارثة كبيرة لا تحمد عقباها، ولكن وقى الله المسلمين شرها، وأشار الشيخ شمس الدين إلى ذلك بقوله: ((وكانت عاقبة الشورى أنها سببت نشوء هذه الأحزاب القائمة على الولاء لأشخاص معينين)) وقد ساعد مجيء عثمان بن عفان للخلافة على تصاعد نفوذ الطبقة الارستقراطية على حساب الطبقة الفقيرة، ولعل ثورة الصحابي

الجليل أبي ذر الغفاري على الواقع الذي عايشه الناس في عهد عثمان، هو دليل على انشطار المجتمع بين غارق في الثروة، وبين مسحوق إلى أقصى الدرجات، وقد كشف الإمام علي عليه السلام عن غضبه ونقمته تجاه هذه الحالة المزرية، وكانت بدايات الثورة جاء عن طريق احتجاجات الصحابة من أمثال أبي ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر في الوقت الذي كان الإمام علي عليه السلام يحاول ايجاد توازن بين الناقمين على السلطة، فيقول الشيخ شمس الدين: ((وبينما كان علي بن أبي طالب يسفر بين الثوار، وبين الخليفة، فيهدئ من ثورة أولئك، وينبّه عثمان وينصحه بالاستقامة والعدل)) وقد أوضح الإمام علي عليه السلام هذا الواقع في احدى خطبه المدونة في كتاب (نهج البلاغة) وقد أدى مقتل الخليفة عثمان بن عفان إلى أزمة حادة، وقد تحمل أعباءها الإمام علي عليه السلام حينما أرغم على تولي خلافة المسلمين في هذا الجو المضطرب، فكان عليه اجراء تغيير اداري جذري في نظام الحكم.

فأقدم على إزاحة الولاة السابقين الذين وصفهم بالسفهاء، وأتباع سياسة مالية جديدة، ولا شك أن هذين الاجراءين لم يلاقيا ترحيباً من قبل الاستقراطية العربية، وقد أغاضها مبدأ ((من أين لك هذا؟)) لأنه سوف يقضي على مصالحها وامتيازاتها. وهذا مما أدى إلى ردود فعل كبير في نفوس الارستقراطيين وأنصارهم، وكانت نتائجه واضحة في أحداث البصرة وصفين والنهروان، فيقول الشيخ شمس الدين ((وهكذا قضى بسرعة، وحسم على شرعة التفاوت الطبقي بما له من ذيول اقتصادية ودينية، فسوّى بين المعتقين والاحرار، والسابقين في الإسلام والمسلمين الجدد)) ولكن معاناة الإمام علي عليه السلام في تطبيق إجراءاته المالية والإدارية، ومن ثم استشهاده المبكر، فأدى إلى وصول (الطلقاء) إلى السلطة، تلك الفئة التي حاربت الإسلام بقوة، وتحالفت مع العناصر المناوئة، فلم تجد إلاّ اعتناق الإسلام بعد فتح مكة، ومن ثم التطلع إلى تسلم السلطة وهذا حصل فعلاً بوصول الأصوليين إلى الحكم، وشراء الرجال بالأموال والمناصب، ومن ثم تصفية المسلمين العقائديين، وعلى الرغم من هذا الموقف، فإن الإمام الحسن عليه السلام حينما أجبر على توقيع الهدنة مع معاوية بن أبي سفيان وفق شروط بعضها يتعلق بنظام الحكم، وعدم إسناد ولاية العهد لأي إنسان بعد حكم معاوية سواء من أسرته أو من غيرها، وقد أشار الشيخ مهدي شمس الدين إلى هذه

المرحلة الانتقالية بين خلافته وإمامة الحسن عليه السلام، وبين وصول معاوية للسلطة فيقول: ((ثم كانت خلافته الحسن بن علي، ذات الشهور العاصفة الحبلى بالدسائس والمؤامرات عليه من قبل الانتهازيين والوصوليين، ثم اضطراره إلى التخلي عن الحكم مؤقتاً تحت ضغط الأحداث التي لم تكن صالحة تفادياً لحرب خاسرة تذهب فيها دماء أنصاره دون الحصول على نصر آني أو في المستقبل القريب أو البعيد ((فاستخدم معاوية سياسة الترغيب والترهيب. وعين ولاة قتلة وقساة في الأمصار الإسلامية فقاموا بتتبع أنصار آل البيت عليهم السلام، وأطلقوا العنان للأموال بنثرها بين ضعاف النفوس، حتى أشيع في الساحة ارهاب وتجويع، وقتل وتشريد، وتسليط قبيلة على أخرى، حتى استخدام الدين استخداماً لا يتفق مع مبادئه وأصوله، وقد أشار الشيخ شمس الدين إلى هذه الحالة بقوله: ((فإن هذا السخاء كان مقصوداً على هذه الطبقة الارستقراطية التي صعد على اكتافها إلى الحكم والتي استعان بما لها من نفوذ سياسي أو ديني في مؤامراته وحروبه)). فأدت هذه السياسة إلى تأجج العصبية القبلية، وانشطار بعض القبائل على أنفسها، فقد استدرج بعضهم إلى مناصب إدارية وعسكرية، على حساب الاخرين، وقد روّج بعض رجال الدين والمحدثين أحقية آل أمية في الحكم، عن طريق الأحاديث المختلقة والموضوعة، وتفسير بعض الآيات الكريمة لصالح السلطة الحاكمة، فاستحدثت أحزاب مؤيدة لنظام الحكم كالمرجئة والجبرية، فيقول الشيخ شمس الدين: أن الجبرية. توحي إلى الناس بأن وجود الأمويين وتصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ليست سوى قدر مرسوم من الله لا يمكن تغييره ولا تبديله، فلا جدوى من الثورة عليه. وقد وقف القصاصون والشعراء إلى جنب المحدثين والفقهاء وغيرهم من الذين أماتت الأموال ضمائرهم، وأبعدتهم عن عقائد دينهم، فقد ساهمت هذه العناصر على إسناد السلطة في تتبع الرافضين لشرعية وجودها، وقد أشار إلى هذا الجانب الشيخ شمس الدين بقوله: ((إن سياسة الاضطهاد والتجويع خنقت الحرية في النفوس.

وحملت الجماهير على أن ترضى بحياة ذليلة مضطهدة خشية أن تصير إلى لون من الحياة أقسى وأنكد، ورأينا أن الروح القبلية حولت الإنسان المسلم عن أهدافه العظيمة التي وجهه إليها الإسلام وشغلته بأهداف أخرى تتصل بأفقه القبلي الضيف، وصنمه القبلي

الجديد)). وفي الواقع أن الذي يتصفح التاريخ بإمعان ودقة يجد الأمويين قد نأووا الإسلام في جاهليتهم، وفي إسلامهم الظاهري، وحسبوا أن الخطورة تكمن في علي وابنائه وأنصارهم، وأن شواهد التاريخ تمتد عبر عصور الأئمة عليهم السلام، وكان الإمام الحسين قد عاصر أحداث الرسالة وعهدي أبيه وأخيه عليهما السلام، فلابد من أن يأخذ دوره في الاصلاح، ويعيد للإسلام حيويته، ومن هذا الباب دخل الشيخ محمد مهدي شمس الدين إلى دراسة الثورة الحسينية الرائدة، وفق العنوان الذي حدده لكتابه، فيقول: ((وهذا الواقع الكالح وضع الإمام الحسين وجهاً لوجه أمام دوره التاريخي، ورسالته النضالية، وهذا الدور الذي يفرض عليه أن يثور، وأن يعبّر بثورته عن شعور الملايين، وأن يهز بثورته هذه الملايين نفسها، ويضرب لها المثل والقدوة في حرب الظالمين)). وقد وضع الإمام الحسين عليه السلام. استشهاد حجر بن عدي، وعمرو بن الحمق، والحضرميين موضع الدلائل على خروج معاوية عن الخط الإسلامي، وقد أوضح ذلك في رسائله التي استنكر فيها هذه الجرائم بحق الصحابة الأجلاء، وكان استلحاق زياد بن أبيه (ابن سمية) بنسب آل أبي سفيان علامة سوداء في تاريخ بني أمية، سوف تبقى في سجلات التاريخ وصمة عار في التاريخ الأموي السفياني، واين معاوية والحديث الشريف ((الولد للفراش وللعاهر الحجر)) وهو حديث صحيح، متفق على صحته، وقد اضيفت هذه الإدانة التاريخية إلى الإدانات الأخرى التي ذكرنا بعضها، وقد وقف الإمام الحسين عليه السلام على وقائعها، دون أن يمتشق الحسام، وقد التزم ببنود الهدنة التي عقدها معاوية مع الإمام الحسن عليه السلام، ولم نتفق مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين في رأيه حول عدم إعلان الإمام الحسين عليه السلام، الثورة في عهد معاوية، وأشار إلى السبب العسكري الذي أدى إلى عدم استجابة الناس للقتال ولكن في الحقيقة أن الإمام الحسين عليه السلام أراد اعلام الناس بعدم تطبيق معاوية لبنود المعاهدة المعقودة مع الإمام الحسن عليه السلام، ومن ثم تصفية الإمام بالسم على يد زوجته جعدة بنت الأشعث، وتصفية عدد كبير من الصحابة، وجاء حديث الشيخ شمس الدين عن الثورة الحسينية دائماً، وقد اتسم بتحليل دقيق فيقول: ((الثورة في سبيل الشعب والبناء الاجتماعي لا لكونه ابن النبي، وإنما لنصرة الحق والدين فقط، والتقائه بالحر توضح مغزى ثورته))، وأن ردود الإمام الحسين عليه السلام على الناصحين له بالعدل عن الثورة من أمثال: عبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر، والشاعر الفرزدق، وعبد الرحمن بن الحرث وغيرهم، وتعطي صورة للمصير

الذي كان ينتظره الإمام الحسين عليه السلام، وقد أشار الشيخ مهدي شمس الدين إلى هذا الموقف بقوله: ((هذه النذر كلها تشير إلى أنه كان عالماً بالمصير الذي ينتظره)). ويقول: ((أن ثورته لم يستهدف نصراً آنياً، ولأنه كان مدركاً لاستحالة الحصول على نصر آني ((وتطرق إلى كلمة الشاعر الفرزدق)): ((قلوب الناس معك، وسيوفهم عليك)) بتحليل دقيق جاء فيه: ((قلوب الناس معه لأنهم يحبون أن يصيروا إلى حال احسن من حالهم، ولكنهم حين علموا أن ذلك موقوف على بذل تضحيات قد تصل إلى بذل الحياة انكمشوا وسلوا سيوفهم في خدمة الذين يدفعون لهم أجر قتالهم لهذا جاء بدعوة منهم ليحررهم. وكيف أخذت المرأة تخذل ابنها وزوجها وأخاها، وكيف أخذ الرجل يخذل ابنه وأخاه وأباه، وقد أدى هذا الخذلان إلى انتكاس الطليعة الحسينية في مدينة الكوفة، والتي قادها الشهيد مسلم بن عقيل، وقد انساق بعض القادة وراء المادة، وكان عمر بن سعد نموذجاً لمجتمع يشترى ويباع بقليل من المال، وبكثير من الارهاب وقد كشفت ثورة الإمام الحسين عليه السلام عن دناءة السلطة الاموية في يوم الطف كحبس الماء، وقتل الأطفال، واحراق الخيام، وقد كشف الإمام الحسين عليه السلام قبيل استشهاده عن حقيقة السلطة وواقعها الفاسد، واستكملت الحوراء زينب عليها السلام في خطبها في الكوفة والشام فضائح السلطة وأعمالها اللا إنسانية، وكان الفصل الأخير من الثورة الحسينية جاء بعنوان ((آثارها الإنسانية)) وقد أراد الشيخ شمس الدين إبراز الصحوة الإسلامية بعد معركة الطف الأليمة، كما ترويها أحداث التوابين وحركة المدينة وحركة عبد الله بن الزبير وغيرها وحملت ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي شعاراً جاء فيه:

((يا لثارات الحسين)) وقد ساعدت هذه الحركات على اجتثاث المجرمين والذين لطخت أيديهم بدماء الشهداء، وقد أفرزت ثورة الشهيد زيد بن علي عن تيار سياسي وفكري في المجتمع الإسلامي، فيقول الشيخ شمس الدين: ((الزيدية يرون الإمام المفترض الطاعة هو كل قائم بالسيف ذوداً عن الدين ضد الظالمين)) وقد أدت هذه الثورات رغم فشلها العسكري إلى سقوط الحكم الاموي عام ١٣٢هـ على يد الجيش العباسي، وقد دخل الثوار في كل مدينة وحتى العاصمة الاموية، وهم يرددون شعار ((يا لثارات الحسين)) وختم الشيخ محمد مهدي شمس الدين حديثه عن الإمام الحسين عليه السلام وثورته العملاقة ونتائجها بقوله: ((وهي أنبل ثورة قام بها جماعة من الناس، فإن الثائرين لم يستهدفوا من

ثورتهم مغنماً شخصياً لأنفسهم، وإنما استهدفوا من ثورتهم تحرير مجتمعهم من الطغاة الذين كانوا يسومونه العذاب ويجرعونه الصعاب)) ويمكننا القول أن كتاب الشيخ شمس الدين: ((ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية)) فإن محتوياته ونصوصه تنطبق على عنوانه دون زيادة أو فضول، وقد سيطر التحليل والنقد الموضوعي على فصول الكتاب.

خاتمة:

حاولت من خلال كتاب (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية للعلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين معاني الركنين الذين ارتكز عليهما الكتاب وهما: (الجانب الاجتماعي والبعد الإنساني) وقد استطاع الشيخ شمس الدين الإحاطة بالثورة الحسينية إحاطة تامة بعد اطلاعه على المصادر الأساسية، وما تضم من نصوص تاريخية، مبتعداً عن الانجاز المذهبي والمعتقد الديني، وإنما كانت الأمانة العلمية تلاحقه من البداية حتى النهاية، فاستعرض الأحداث التاريخية التي سبقت الثورة الحسينية، ووقف على تفسيرها وتحليلها، مما يؤشر على تضلعه في علم التاريخ، وأعطى لبعض الأحداث تفسيراً اقتصادياً، ساعدت على تدهور الأوضاع في المجتمع الإسلامي في عهدي الامامين علي والحسن عليهما السلام، وما صاحب الوضع من انحراف وقع فيه الحاكمون وولاتهم في السلطة الاموية، ولم يكن الإصلاح العلوي والحسني حائلاً من تفشي الانحراف، وكان من نتائجه استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وأن القارئ المتفحص لكتاب الشيخ محمد مهدي شمس الدين يتلمس فيه التحليل العلمي للأحداث، والمنهجية الدقيقة في العرض، وتفسير فلسفي للنصوص، وهذا ما يفسر حيوية الثورة الحسينية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام حتى سقوط الحكم الاموي عام ١٣٢هـ، وهذا مما أعطى للثورة الحسينية صفة الانفرادية من بين الثورات في التاريخ الإسلامي، لأن الثورات جميعها إن فشلت فإنها تختفي من صفحات التاريخ، وإن نجحت يصل قائدها إلى السلطة، فالثورة الحسينية لم تختف وإن استشهد الإمام الحسين عليه السلام، وبقي شعار (يا لثارات الحسين) يلازم الثوار حتى سقوط الحكم الاموي، وهذا ما أراد العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين إيضاحه في كتابه المنجز: (ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية).